الحرية الفكرية في منظمة التحرير الفلسطينية

مـَـرْكـزا «الأبحـاث» و«الـتـخـطيط» مـثـالاً

. صـقـر أبو فـخـر * .

مقدمة

منذ انبثاق منظمة التحرير الفلسطينية م. ت. ف. في ١٩٦٤/٥/٢٨ شَرَعتْ قيادتُها في إنشاء طائفة من مؤسسات البحث العلمي لتكون مُعينًا لها في صراعها المحتدم ضدّ الصهيونية وإسرائيل. وفي خضمّ الكفاح الفلسطيني المتواصل والمسلّح الذي دشّنتْه حركةُ «فتح» في ١٩٦٥/١/١ تبلورت الحركةُ الوطنيةُ الفلسطينيةُ لا مجردَ مجموعةٍ من الفصائل المقاتلة، وإنّما تيارًا وطنيًا شاملاً يعبِّر عن تطلُّعات الفلسطينيين في شتّى أماكنهم ومهاجرهم.[١] وظهرتْ في المجرى الكبير لهذا الكفاح مؤسساتٌ مهمّةٌ قدّمتْ إسهاماتٍ جلّى في البحث والصحافة والإعلام. وقد كان الفلسطينيون روّادًا في هذا الحقل من حقول المعرفة: فهم أولُ مَنْ أسّس مراكزَ البحث العلمي في لبنان، وعلى أيديهم ظهرتْ «مؤسسةُ الدراسات الفلسطينية» و«مركزُ الأبحاث» و«مركزُ التخطيط.» وَجهدتْ هذه المراكز في إعلاء شأن القضية الفلسطينية في الديار العربية وفي المنابر الأوروبية والأميركية، وتمكّنتْ ـ بالتدريج ـ من إدخال القضية الفلسطينية إلى فضاء الإعلام والصحافة وعقولِ الدارسين في مختلف أنحاء العالم. وما كان لهذا الجهد أن يينعَ لولا نفرٌ من الباحثين اللامعين، الفلسطينيين والعرب، الذي نَذَروا أنفسَهم لهذه الغاية الجليلة، وتوفّروا برسوليةٍ مدهشةٍ على الكفاح الفكري والعلمي في سبيل فلسطين والنهضة العربية. وتاريخُ الفكر العربي المعاصر مَدينٌ، بلا شكّ، لهؤلاء أمثال فايز صايغ، ويوسف صايغ، وأنيس صايغ، ووليد الخالدي، وقسطنطين زريق، ونبيه أمين فارس، وبرهان الدجاني، وسامي هداوي، وإدمون ربّاط، وغيرهم الكثير.

بين العديد من المراكز والمؤسسات الرديفة التي ظهرتْ في إطار الحركة الوطنية الفلسطينية اشتُهِرَ، ربما أكثرَ من غيره بكثير، كلٌّ من «مركز الأبحاث» و«مركز التخطيط» و«مؤسسة الدراسات الفلسطينية،» فضلاً عن «الموسوعة الفلسطينية» ومؤسسة «صامد» و«جمعية الدراسات العربية في القدس » وسيكون الكلامُ هنا مقصورًا على «مركز الأبحاث» و«مركز التخطيط.»[٢]

فكرة البحث الفلسطيني

بدأتْ فكرةُ البحث الفلسطيني بالظهور التدريجي في النصف الثاني من خمسينيات القرن العشرين، عندما ألحّت الحاجةُ إلى الإجابة عن أسئلة النكبة وترافَقَ ذلك مع البدايات التأسيسية لحركة القوميين العرب (١٩٥٦) ولحركة فتح (١٩٥٩) لكنّ هذه الفكرة لم تتبلور إلاّ في سنة ١٩٦٢ حينما بدأ العملُ الحثيثُ لإنشاء مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، والتي ظهرتْ إلى الوجود فعلاً بعد عام ولعلّ

---

* ـ سكرتير تحرير **مجلة الدراسات الفلسطينية**، بيروت

١ ـ وقفت الهيئةُ العربيةُ العليا بقيادة الحاج أمين الحسيني، رئيس الهيئة، ضدّ م. ت. ف ، وتحفّظتْ عنها حركةُ القوميين العرب (على الرغم من ناصريّتها) تحفُّظًا موقّتًا، بينما رأى حزبُ البعث العربي الاشتراكي المناوئُ للرئيس عبد الناصر في المنظمة أداةً سياسيةً للرئيس المذكور

٢ ـ وسببُ ذلك منهجيٌّ. ذلك أنّ «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» ليست تابعةً لمنظمة التحرير وإنّما هي ـ منذ تأسيسها عامَ ١٩٦٣ ـ مؤسسةٌ لبنانيةٌ قانونًا، وعربيةٌ تكوينًا، وفلسطينيةٌ غايةً. أما مؤسسة «صامد» فكانت منذ بداياتها، سنة ١٩٦٩، تابعةً لحركة «فتح» لا لمنظمة التحرير. وأما «الموسوعة الفلسطينية» فهي هيئة مستقلّة انبثقتْ من اتفاق جرى توقيعُه عامَ ١٩٧٤ بين م. ت. ف. والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) ومع أنّ لمنظمة التحرير صلةً تأسيسيةً بـ «الموسوعة،» إلاّ أنّ هذه الصلة ظلت، بموجب الاتفاق، معنويةً لأنّ «هيئة الموسوعة الفلسطينية» اكتسبت الشخصيةَ الاعتباريةَ المستقلّةَ عن طرفي الاتفاق فور تأسيسها، وكانت جميعُ القرارات الإدارية والمالية تَصْدر عن المدير العامّ للألكسو لا عن رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. والأمر نفسه يَنْطبق على «جمعية الدراسات العربية في القدس،» التي كان لمنظمة التحرير ولحركة فتح أصابعُ غيرُ خافيةٍ في تأسيسها سنة ١٩٨٠، إلاّ أنّها لم تكن خاضعةً رسمياً للهيكلية التنظيمية لمنظمة التحرير

مركز الأبحاث ومركز التخطيط مارسا حيويّتهما الفكرية باستقلالٍ كبير رغم أنّهما تابعان لمنظمة التحرير.

المؤرِّخ المعروف نبيه أمين فارس كان ثاقبًا آنذاك في عبارةٍ ظلّ يردّدها دائمًا، هي أنّ العرب والفلسطينيين لا يحتاجون عقولاً البتةَ بل أقفية! ومعنى كلامه أنّ لدى العرب والفلسطينيين الكثيرَ من الأدمغة والمهارات، لكنّ ما يَنْقصها هو الجلوسُ في المكتبات وإلى طاولات الكتابة، وأن تنكبّ على الدرس والتأليف واستخلاص الأفكار ووضْع محصّلةِ ذلك كلّه في أيدي صانعي القرارات ورجال السياسة والصحافة معًا

بدأتْ فكرةُ البحث الفلسطيني، إذن، بجهودِ نفرٍ من الروّاد الفلسطينيين والعرب، وتجسّدتْ، أولَ ما تجسّدتْ، في «مؤسسة الدراسات الفلسطينية » إلاّ أنّها اتّخذتْ تجسيدًا جديدًا وتجديديّاً مع تأسيس «مركز الأبحاث» في سنة ١٩٦٦، ثم مع «مركز التخطيط» في سنة ١٩٦٨ وقد تمتّع هذان المركزان، إلى حدٍّ كبير، باستقلالية في تقرير البرامج النشرية، وبحرية نسبية في إقرار الخطط البحثية ولا ريْب في أنّ سؤالاً لجوجًا ما بَرِحَ يحوم في هذا الشأن هو: إلى أيّ مدًى كان مركزُ الأبحاث، واستطرادًا مركزُ التخطيط، يتمتّعان بالاستقلالية والحرية عن المؤسسة الأمّ، وهما تابعان عضويّاً لمنظمة التحرير الفلسطينية؟

لنتذكّرْ أنّ الاسم الرسمي لمركز الأبحاث هو «مركز الأبحاث **التابع** لمنظمة التحرير الفلسطينية.» ولعلّني لا أجازف بالقول حينما أدّعي أنّ مركز الأبحاث ومركز التخطيط، التابعيْن لمنظمة التحرير هيكليّاً، واللذيْن يَعْملان تحت الإشراف المباشر لرئيسها، كانا يمارسان حيويّتَهما الفكرية باستقلال كبير، وبحرية في البحث والتفكير والنشر لم يتمتّعْ بها أيُّ مركزٍ مماثلٍ في العالم العربي. ولعلّ السبب كامنٌ في أنّ هذيْن المركزيْن عملا بعيدًا عن القيادة السياسية الفلسطينية المقيمة، آنذاك، في عمّان ثم إنّ تقاليدَ العمل الفكري في بيروت وحريةَ التعبير المتاحة في لبنان كان لها نصيبٌ في الحدّ من احتمالات التدخُّل السياسي في عمل المركزيْن وبحسب علمي، فإنّ المركزيْن ظلاّ يعملان في أجواءٍ مقبولةٍ من الحرية، وبلا تدخُّلٍ ضاغطٍ من المستوى السياسي، إلاّ في حدود الحدّ اللطيف وصلاحيات رئيس المنظمة واستمرّت الحالُ على هذا المنوال إلى ما بعد سنة ١٩٧٤ حينما حَدَثَ الانشطارُ المعروفُ في السياسة الفلسطينية على قاعدة القبول بـ «برنامج النقاط العشر» أو رفضه. ثم اندلعت الحربُ اللبنانية، فتغيّرت الوقائعُ تمامًا وبالتدريج، انهمكتْ جميعُ المؤسسات الفكرية والإعلامية والتوثيقية في معمعان الحرب، ما أدّى إلى انحسار البحث العلمي رويْدًا رويْدًا حتى كاد أن يضمحلّ قبيْلَ الخروج الفلسطيني المسلّح من لبنان عامَ ١٩٨٢

وأبعد من ذلك، فإنّ انحسار البحث العلمي الفلسطيني لم تكن علّتَه الحربُ اللبنانيةُ وحدها، أو سطوةُ القيادة السياسية وتدخُّلاتُها، وإنّما البيئةُ الثقافيةُ للثورة الفلسطينية. فهذه البيئة ظلت متخلِّفةً في بعض جوانبها، وشاع في بعض أوساطها احتقارُ الشهادات العلمية والألقاب الأكاديمية. وفي لجّة القتال اليومي انتصرتْ، إلى حدٍّ ما، مقولةُ «السياسة تَنْبع من فوهة البندقية» وأصبحتْ شعارًا للعديد من القيادات من ذوي المخيّلة الشاحبة والأدمغة المتخشّبة. وجرى استحلابُ شعارٍ لاحقٍ من ذلك الشعار السابق هو «**الثقافة** تَنْبع من فوهة البندقية » وظَهَرَ، في النتيجة، مصطلحُ «أدب البنادق» الذي لا نكاد نتذكّر منه اليومَ شيئًا! وكان الكلامُ الساري في الأفواه هو أنّ الحارس في المخيّم أفضلُ من الباحث في مؤسسة الدراسات الفلسطينية! وهذا الكلام يَعْكس عقليةَ التضادّ الغريزي بين الفاكهاني ورأس بيروت. لكنْ، في ما بعد، تبيّن أنّ الحارس الذي غادر بيروتَ في سنة ١٩٨٢ ترك المخيّمَ بلا حراسة، بينما برهن الباحثُ الملتزمُ حينما انبرى إلى الدفاع عن المخيّم في الحرب على المخيّمات (١٩٨٥ ـ ١٩٨٧) أنّه الحارسُ الأخيرُ للشعب الفلسطيني.

ثم لا ننسى تواطؤَ المثقف الفلسطيني نفسه مع المؤسسة السياسية في الكثير من الحالات، الأمرُ الذي عَوّقَ التفكيرَ النقديّ المستقلّ والبحثَ العلميّ الرصين وهناك المثقفُ المعزول الذي يحترف التعبير عن تجربته الذاتية شعرًا أو فنّاً أو تصوُّفًا، وهذا لا يميل إلى البحث المنهجي. وأما المثقف النقدي المستقلّ،

فهو قليلُ التأثير في الواقع الفلسطيني.

في هذا المناخ المضطرب قُيِّض للبحث الفلسطيني أن ينشأ وأن يبني مؤسَّساته وأن ينشرَ على الناس خلاصةَ أبحاثه ودراساته الفائقة الأهمية. ولعلّ تجربة مركز الأبحاث وتجربة مركز التخطيط تقدِّمان لنا لوحةً أوليةً عن هذا الشأن الذي نحن في صدده.

مركز الأبحاث

بدأ مركزُ الأبحاث كفكرة في رأس فايز صايغ، صاحبِ العقل العلمي النادر وظهر إلى الوجود في شباط (فبراير) ١٩٦٥ في خضمّ أحداثٍ جمّةٍ، منها تأسيسُ جيش التحرير الفلسطيني وإطلاقُ الرصاص الأولى لحركة فتح. فكان، منذ الولادة، مركزًا للبحث وتابعًا، في الوقت نفسه، لمؤسسة قتالية. وحظي هذا المركزُ بمكانةٍ علميةٍ مرموقة، وعلى يَدَيْ د. أنيس صايغ الذي أصبح مديرًا له في سنة ١٩٦٦ تحوّلَ خلال عشر سنوات من شقةٍ صغيرةٍ في رأس بيروت إلى مبنًى من ستّ طبقات.[1] وفي هذه الفترة نَشَرَ المركزُ ٣٥١ كتابًا.[2] وأصدر مجلة **شؤون فلسطينية** في سنة ١٩٧١ التي اعتُبِرتْ واحدةً من أهمّ المجلات العربية التي صدرتْ في سبعينيات القرن العشرين.

أراد أنيس صايغ لمركز الأبحاث، منذ مراحله الأولى، أن يكون مركزًا علميّاً مستقلاً وملتزمًا في الوقت نفسه: فلا ينحاز إلى موقف أيّ جهة سياسية مع أنّه تابعٌ لمنظمة التحرير الفلسطينية، لكنّه يَخْدم قضيةَ فلسطين بشموليّتها. والآن، بعد هذه السنوات الطويلة، أتساءل: لو لم يتمتعْ مركزُ الأبحاث بهامشٍ واسعٍ جداً من الحرية والاستقلال العلمي، هل كان في إمكانه أن يُنجز ما أنجزه؟ وأجيب: على الرغم من التدخُّلات التي مارسها المستوى السياسي، فإنّ ياسر عرفات، قائدَ م. ت. ف. منذ سنة ١٩٦٩، كان «متسامحًا» إلى حدٍّ عجيبٍ مع مركز الأبحاث الذي وُصِفَ دائمًا بأنّه مركزٌ متمرِّدٌ عليه وموروثٌ من عهد أحمد الشقيري. وكانت هناك ريبةٌ من هذا المركز بسبب الانطباع الذي نشأ لدى عرفات، جرّاءَ دسائس بعض المثقفين، عن أنّ ولاء صايغ كان لأحمد الشقيري ولمصر عبد الناصر ثم تحوّلَ إلى سورية.[3] ومع أنّ هذا الانطباع لم يتبدَّدْ تمامًا من رأس عرفات، إلاّ أنّ صايغ واجَهَ ذلك كلّه من غير وَجَل، وخاض معتركَ التمرّد وعدم الانصياع، وتمكّن من أن يحمي مركزَ الأبحاث إلى حدٍّ بعيد، وأن يقدِّم صورةً رفيعةً للبحث العلمي الفلسطيني. وهذا يعني، في بعض وجوهه، أنّ القيادة الفلسطينية آنذاك، كانت تحترم، بدرجة أو بأخرى، مراكزَ البحث العلمي، ولا يَضيق صدرُها كثيرًا بالاختلاف والرأي الآخر.

في مذكراتٍ موسومةٍ بعنوان **أنيس صايغ عن أنيس صايغ**،[4] أفرد صايغ، الذي اشتُهر بعدم الودّ لياسر عرفات، فصلاً خاصّاً عن العلاقة المضطربة به. وفي معظم الوقائع التي سردها، ثمة مأثرةٌ مهمة يمكن استخلاصُها، هي أنّ عرفات كان يتراجع عن تدخّلاته في معظم الأحيان، وأنّ موقف صايغ كان ينتصر في نهاية المطاف وهذا الأمر يُسجّل لمصلحة عرفات بالتأكيد

من البدهيّ أن تتدخّل م. ت. ف. في شؤون المؤسسات التابعة لها، وهذا

١ ـ بدأ مركز الأبحاث باثنيْ عشر موظفًا وثلاث خزائن من الكتب وفي سنة ١٩٧٦ بات يضمّ ٤٠ باحثًا، و٢٠ إدارياً، و١٠ موثِّقين، ومكتبةً تحتوي ٢٠ ألف مجلّد، وعشرات الخزائن من الوثائق والأوراق الخاصة والمخطوطات والكتب النادرة وأشرطة التاريخ الشفوي الفلسطيني.

٢ ـ ٢١٧ بالعربية، و٨٧ بالإنكليزية، و٢١ بالفرنسية، و٢٦ من الكتب المحدودة التوزيع.

٣ ـ أنيس صايغ فلسطيني من أصل سوري، ويَحْمل إلى جانب الجنسية السورية الجنسيةَ اللبنانية أيضًا، ونال وسامًا سوريّاً رفيعًا من الرئيس حافظ الأسد بعد نجاته من محاولة الاغتيال في سنة ١٩٧٢ وزادت شكوكُ الرئيس عرفات حينما نَشرتْ جريدةُ **صوت الأحرار** في الصفحة الأولى أنّ الفلسطينيين يرشّحون أنيس صايغ رئيسًا للمنظمة بدلاً منه

٤ ـ بيروت، رياض الريِّس للكتب والنشر، ٢٠٠٦

التدخُّلات الفظّة في مركز الأبحاث كانت من نصيب الأمناء العامّين لبعض الفصائل من ذوي الرؤوس الحامية!

الأمــر لا يمكن نكرانُ عــدم حــدوثه. فالمنظمة مسؤولةٌ، أولاً وأخيرًا، عن هذه المؤســســات مــعنويّاً ومــاليّــاً وإداريّاً وسـيـاسـيّـاً أيضًـا. وفي حــالة مـركـز الأبحاث سيكون من المعيب حقّاً لو أنّ قـيـادة المنظمـة تدخّلتْ لتطويع البـحث العلمي في سبيل مصلحتها السياسية. لكنْ، هل كانت المنظمة تتدخّل على هذا النحو؟ إنّه سؤال يبدو من المحال العثورُ على برهانٍ قـاطع عليـه، بل إنّ وقـائـع الحال تشير إلى أنّ الحرية النسبية في مجال البحث كانت متاحةً إلى حدّ كبير. أما التدخُّلات الفظّة فكانت من نصيب الأمناء العـامين لبـعض الفـصـائل من ذوي الرؤوس الحــامـيــة، والذين لـم يتورّعوا عن القيام ببعض التصرّفات الخرقاء. وفي هذا السياق يروي أنيس صـايغ في مذكّراته كيف تلقّى تهديدًا بالقـتل من إحـدى المنظّمـات لأنّه نعى شـابّاً كـان يَعْمل في مـركـز الأبحـاث، وتبيّن أنّ منظمته أَعْدمتْه بتهمة عصيان الأوامـر.[1] وقـيل له آنذاك: «إذا كـانت إسرائيل فشلتْ في قتلك فنحن نستطيع ذلك بيُسْر.» كما تعرَّضَ مركزُ الأبحاث للتـخـوين والتكفـيـر من بعض خطبـاء المسـاجد لأنّ مـجلة **شؤون فلسطينية** نشرتْ مـقالاتٍ تفرّق فـيـها اليـهودَ عن الصــهـيـونـيـة (ولا شكّ في أنّ بـعض «المثـقـفين» الفلسطينيين تطوّعـوا لإبلاغ أولئك الخطباء بمضامين تلك المقالات). وتعـرَّضَ مـركـزُ الأبحـاث لهـجـوم من الكنيسـة الكاثوليكية في لبنان لأنّ أحد الكتب الصــادرة عن المركــز أَوْرد أنّ المطران حكيم، مطرانَ حـيـفـا والجليل (البطريرك في ما بعد)، دعـا الناسَ إلى الانضمام إلى الهستدروت واستخلاص حقوقهم عبر هذه النقابة ـ وهي واقعةٌ صــحـيـحـة. ولعلّ قـصـة صـادق جـلال العظم تَخْتزن بعضَ المغزى؛ فقد أراد عرفات فَصْلَه من مركز الأبحاث، إلاّ أنّ صـايغ رَفَضَ ذلك وبقي العظمُ في المركزَ بترتيب جديد.[2]

بل إنّ صــايغ في آخـر عــهـده بمـركـز الأبحاث، قبيْل استقالته، أقفل الهاتفَ في وجه عرفات فيما كان هذا يخاطبه معتذرًا ومع ذلك لم يوجِّه أحـدٌ من «فـتح» أو من قيادة م. ت. ف. إلى صـايغ أيَّ تهديد. ولو وقع هذا الأمـرُ مع مـسـؤول من الدرجـة العاشرة في أحد الفصائل لكانت حاملاتُ الدوشكا طوّقت المركـزَ وسَـحـبت المفكّر الكبير أنيس صايغ إلى الزنازين.[3]

مركز التخطيط

ظهر مـركـزُ الـتـخطيط إلى الوجـود في ١٨/٩/١٩٦٨ على يد مـؤسّسـه يوسف صـايغ.[4] ثم تعـاقَبَ على إدارته كلٌّ من نبـيل شـعث، ومـنيـر شـفـيق، وسـلافـة حجاوي. وكانت الغاية التي نشأ المركزُ في سبيلها هي وضع الخطط السياسية والمالية والـثـقـافـيـة والعسكرية لمنظمة

١ ـ الشاب الذي أُعدم هو شقيق غازي دانيال. والاثنان كانا يَعْملان في مركز الأبحاث.

٢ ـ السبب كان احتجاجًا على عبارات وردتْ في مقالة للعظم في مجلة **شؤون فلسطينية**. وتزامنتْ هذه المشكلة مع صدور كتابٍ للعظم بعنوان **دراسة نقدية لفكر المقاومة الفلسطينية** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٥)، وفيه قدّم العظم مطالعةً نقديةً حادّةً في الفكر السياسي لحركة فتح. ومن جانب آخر، ولدحضِ شائعةِ المحاصصة في مؤسسات م. ت. ف.، فقد كان ثلثُ الباحثين في المركز من العرب غيرِ الفلسطينيين، وكان عددُ الباحثين المنتمين إلى الجبهتيْن الشعبية والديموقراطية أكبرَ من عدد الباحثين المنتمين إلى فتح.

٣ ـ يروي صايغ القصة على النحو التالي: أَصدرتُ أمرًا إداريّاً بنقل باحث من مهمةٍ فَشِلَ فيها إلى مهمةٍ أخرى تلائمه من دون أيّ تغيير في الرتبة والراتب. إلاّ أنّ هذا الباحث ذهب إلى عرفات وشكا له هذا الإجراءَ، فكتب عرفات على هامش الأمر الإداري: «إلغاء القرار والحفاظ على راتب الباحث وراتبه.» فما كان من صايغ إلاّ أن قدّم استقالتَه. وهنا تدخّل الكثيرون لمعالجة الأمر، وكانت آخرَ محاولة هي ما قام به محمود أبو مرزوق إذ اتّصل بعرفات من منزل صايغ وناوله الهاتفَ، فإذا بأبي عمّار يعتذر لأنّه اعتقد أنّ صايغ طَرَدَ ذلك الباحثَ وحَرَمَه من راتبه. وهنا، ومن دون أيّ كلمة، أغلق الهاتفَ في وجه ياسر عرفات.

٤ ـ اتّخذ المجلسُ الوطني الفلسطيني في دورته الرابعة المنعقدة في القاهرة (تموز/يوليو ١٩٦٧) قرارًا ينصّ على تأسيس مركز التخطيط، على أن يكون تابعًا مباشرةً لرئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

التـحـرير الفلسطينيـة، وتحـويل هذه الخطط إلى استراتيجية شاملة. وبالفعل وضـعَ المركـزُ خطةً شـاملةً للإعـلام الفلسطيني، وخطةً استراتيجيةً للثورة الفلسطينية. وكان المركز ينْهج طريقةَ تأليفِ فِرَقِ عملٍ متخصِّصة من متفرِّغين في المركز، وباحثين مرموقين من خارجه، لدراسةِ مسألةٍ محدّدة

أسْهم مركزُ التخطيط إسهامًا مهمّاً في إدخال التفكير المستقبلي إلى عقول بعض القيادات الفلسطينية، وفي إشاعةِ نوعٍ من الوعي بالقضايا ذاتِ الطّابع الإستراتيجي. وكان للتقرير السياسي الذي صَدَرَ بانتظام عن المركز شأنٌ مهمٌّ في السجال الداخلي الفلسطيني، وفي بلورة خطاب سياسي مختلف. كذلك كان لقسم الدراسات الإستراتيجية[1] شأنٌ في نشر جانب من المعرفة في هذا الحقل من التفكير. وإلى ذلك دأبَ مركزُ التخطيط على إصدار التقارير الخاصة، مثل تقارير قسم الأرض المحتلّة والقسم التقني وقسم التخطيط التربوي، والتي كانت تُرفع إلى القيادة السياسية وتوزَّع على الهيئات ذاتِ الصلة وعلى ذوي الشأن والاختصاص.

أعتقد أنّ مركز التخطيط لعب دورًا مهمّاً في تنمية الوعي بالمسائل التربوية والعسكرية بالدرجة الأولى، وبالقضايا السياسية والإدارية بالدرجة الثانية. إلاّ أنّه، بحكم تكوينه الوظيفي وصلته اليومية بالقيادة السياسية والاقتصار على تنفيذ ما تَطْلبه القيادةُ من تقارير وتقدير موقف (على أهمية هذا الأمر)، تحوّلَ، بالتدريج، إلى سكرتاريا للقيادة مهمّتُها كتابةُ الرسائل والردُّ على الرسائل الواردة إليها وكتابةُ بعض الخطب السياسية.[2] ثم إنّ التكوينَ العلمي للجهاز البشري في مركز التخطيط خلال الحرب اللبنانية، وانخراطَ بعض أفراده في الحرب، كانا يعوّقان، في الكثير من الحالات، إنجازَ مشاريع ذاتِ وزنٍ مشهود. وعلى سبيل التذكر، حينما عُرِض على م. ت. ف. في سنة ١٩٨٠ اقتراحٌ بأن تَقْبل القرار ٢٤٢ معدَّلاً كمدخل للانضمام إلى الجهد السياسي الدولي، طَلَبَ ياسر عرفات من المركز دراسةَ هذا الاقتراح. وبالفعل، قام الأخ منير شفيق بتأليف فريقِ عملٍ أوّلي لهذه الغاية، وكنتُ واحدًا من هذا الفريق. أما ما حصل بعد ذلك فيثير الأسى؛ فمنذ أول اجتماع لهذا الفريق نشب اقتتالٌ كلامي على «المبدإ،» فقال البعض إنّ القبول بالقرار ٢٤٢ ولو معدَّلاً لا يجوز الخوضُ فيه مبدئيّاً ومع أنّ منير شفيق حاول جاهدًا أن يجرَّ فريقَ العمل إلى مناخ البحث المجرّد بقوله «دعونا نبحث المسألةَ أولاً ثم نتوصّل إلى نتائج، فربما تأتي محصّلةُ بحثنا لتعزِّزَ فكرةَ رفض القبول بالقرار ٢٤٢ معدَّلاً،» غير أنّ الطريقةَ الغوغائية لبعض «الباحثين» عَوّق النظرَ العقلي والعلمي في مركزٍ مرصودٍ للتفكير العلمي وتبيّنَ في نهاية المطاف أنّ قرارات مجلس الأمن وحتى الجمعية العامة للأمم المتحدة لا تَقْبل التعديلَ مطلقًا، بل يمكن السيرُ نحو إصدار قرارٍ جديد وهذا المثال مجردُ علامةٍ من علاماتِ العياء لدى المثقف، لا لدى السياسي هذه المرة

أما القيادة، فعلى الرغم من أنّها تمتّعتْ ببعض رحابة الصدر حيال البحث العلمي حتى الذي لا يلائم هواها، إلاّ أنّها طالما أهملت التفكيرَ العلمي لمصلحة التفكير السياسي المباشر. وتقدِّم لنا حادثةُ الدكتور يوسف صايغ مع القيادة الفلسطينية دليلاً إضافيّاً على هذا الإهمال. ففي أوائل سنة ١٩٧٠ أَنجز مركزُ التخطيط «الخطة الاستراتيجيةَ الشاملة للثورة الفلسطينية» بجهدٍ متضافرٍ شارك فيه العشراتُ من الخبراء والباحثين والسياسيين. وطَبَع المركزُ هذه الخطةَ بنسخ قليلة جدّاً، وأرسلها بالسرّيّة التامة إلى القيادة في عمّان. ولمّا لم يتّصل بيوسف صايغ أحدٌ لمناقشته في تفصيلات الخطة، فقد سافر إلى

١ ـ أصدر المركز نشرةَ **شؤون استراتيجية** ومع أنّ هذه النشرة اقتصرتْ على ترجمة أبرزِ ما كان يُنْشر في المجلات الغربية المتخصِّصة، إلاّ أنّها أصبحتْ زادًا معرفيّاً لا بأس به في مقاييس تلك الفترة

٢ ـ مثل خطاب ياسر عرفات في الأمم المتحدة الذي أَسْهم فيه عددٌ من أصحاب الأقلام، بينهم شفيق الحوت ومحمود درويش وكان لمركز التخطيط (نبيل شعث ومنير شفيق ومحجوب عمر) نصيبٌ فيه

كيف تحوّلت «الخطة الاستراتيجية للثورة الفلسطينية» إلى صينيّة للشاي والقهوة؟!

عمّان لاستكشاف الأمر. وهناك وَجَدَ نسخةً من الخطة «السرّية جداً» مركونةً في مقرّ القيادة، وعلى غلافها بقعٌ من بقايا السكّر والشاي! فتجلَّدَ، ثم قفل إلى بيروت وهكذا تحوّل الجهدُ المتضافرُ والعملُ المتواصلُ لمجموعة مميزة من الباحثين إلى صينية للشاي والقهوة.»

خاتمة

قدَّمَ البحثُ العلمي في مركز الأبحاث وفي مركز التخطيط إسهاماتٍ لامعةً. وربما كانت الفترةُ التأسيسية للمركزيْن فترةَ الإخصاب الحقيقية التي لم تستمرّ في كلّ منهما أكثرَ من عشر سنوات. لكنّ مرحلةَ الضمور لم تبدأ جرّاء هشاشة الإرادة الذاتية أو نتيجةً لتدخّلات القيادة السياسية بل، بحسب ما أَزْعم، نتيجةً لاندلاع الحرب اللبنانية بالدرجة الأولى فالعمل في مناخ الحرب الأهلية من شأنه أن يجعل البحثَ والتخطيطَ مسألةً لا تَحْظى بالأولوية؛ فضلاً عن أنّ الكثيرين من أصحاب الكفاءات ممّن لم يتمكّنوا من احتمال الأوضاع المضطربة غادروا مؤسسات م. ت. ف. إلى الخارج. لكنْ، إذا كانت مؤسساتُ المنظمة لم تتمكّن من إرساء تقاليد راسخة في البحث العلمي، ولم تتمكّن من حماية مؤسساتها القائمة آنذاك كما جرى لمركز الأبحاث لاحقًا، فالغريب أنّ المنظّمات الأخرى التي تلقّتْ ملايينَ الدولارات من العراق وليبيا والجزائر لم تتمكّن من تأسيس مركزٍ واحدٍ ذي شأن على الرغم من محاولاتها المتكرِّرة!

بيروت

محاورة السيدة العجوز

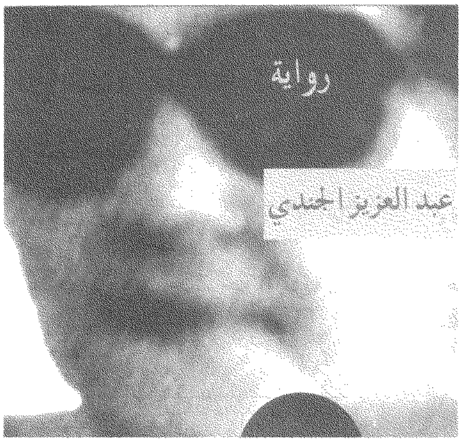

تتناول هذه الرواية موضوع الوجود الذي تناوله كبارُ الأدباء، والتأمّل في الحياة والموت والطبيعة، ومعنى الزمن الجاري وغربة الإنسان.

يعيش البطل هذه المغامرة الوجودية عبر الترحال مع رسام ومعلّم، ومن خلال صوت سيدة المنزل القديم القائم بين الجبال العالية والسهول الرحبة.